﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾

[الكهف: 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الـرّبـطُ بين مـضـمـون الـنُّـصـح، وتَـخـيـيـبُ الله تَـعـالى، ظَـنَّ الرَّجُلِ الكافِرِ

لَمّا كانَ الرَّجلُ المُؤمِنُ مَنظورًا إليه بالرِّضا؛ اسْتجابَ اللّهُ تعالى لَهُ، أو حَقَّق لهُ ما توقَّعه؛ بأن خَيَّب اللّهُ ﷻ ظَنَّ الرَّجُلِ الكافرِ في دَوامِ جَنَّتِه، بأَنْ أَبادَها وأَهْلَكَها، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأُحِيطَ﴾: أصلُ (حوط) يدلُّ على شيءٍ يُطيفُ بشيءٍ[2]، ومِنْهُ قولُهم: أَحاطَ القومُ بالبَلَدِ؛ إذا اسْتَداروا بجوانبِه[3]، وأَحاطَ به الأمرُ؛ إذا أخذه مِن جميع جوانبِه، فلَم يَكُنْ مِنْهُ مَخْلَصٌ[4]، ومِنْهُ اسمُ اللّه: المُحيط؛ مِن قولهم: أحاط فلانٌ بالشَّيءِ؛ إذا استولَى عليْهِ، وضمَّ جميعَ نواحيه حَتَّى لا يُمكِنُ يُمكِنَ فوتُهُ ولا التَّخَلُّصُ مِنْهُ، فاللّه محيطٌ بالأشياءِ كلِّها؛ لأنَّها تحتَ قُدرتِه، لا يُمكنُها الخُروجُ عَن إرادتِه فيها، ولا يَمتَنِعُ عليْه مِنْها شيءٌ[5]، والإحاطَةُ في قولِه تَعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ هيَ عُمومُ الهَلاكِ؛ بأَنْ لَم يَبْقَ مِن ثَمَرِ جَنَّتِه شَيْءٌ.

2) ﴿يُقَلِّبُ﴾: (قلب) تدلُّ على معنَيين كُلِّيَّين؛ خالصِ شيءٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 62.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حوط).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (حوط).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حوط).
(5) أبو القاسم الزَّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 46.

وشريفه، وردِّ شيءٍ مِن جهةٍ إلى جهةٍ[1]، يُقال: قَلَبَ الشَّيءَ وقَلَّبه؛ إذا حَوَّله ظَهْرًا لبَطْنٍ[2]، وقلَّبَ الأُمورَ: بحثَها ونظرَ في عواقِبها، وتَقَلَّبَ في الأُمور وفي البِلادِ: تصرَّفَ فيها كَيفَ شاءَ[3]، وتَقْليبُ الكَفَّيْنِ الواردُ في قَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾، ضَرْبُ اليُمنى مُسْتَعْلِيَةً عَلى اليُسْرى، ثُمَّ عَكْسُ ذلكَ بضَرْبِ اليُسْرى مُسْتَعْلِيَةً عَلى اليُمنى، وهوَ كنايَةٌ عَنِ النَّدَمِ.

3) ﴿كَفَّيْهِ﴾: (كفّ) تَدُلُّ تَصْريفاتُها عَلى قَبْضٍ وانْقِباضٍ، ومِنْ ذَلِكَ: كَفُّ الإنْسانِ، وتَثْنِيَتُها: كَفّانِ، وسُمِّيَتِ الكَفُّ كَفًّا؛ لأنَّها تَقْبِضُ الشَّيْءَ[4]، وحَقيقَةُ الكَفِّ عِنْدَ الإنْسانِ: الرّاحةُ مَعَ الأصابِعِ[5]، وهوَ المُرادُ بقَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾.

4) ﴿خَاوِيَةٌ﴾: (خوي) تَدورُ اشْتِقاقاتُها عَلى الخُلوِّ والسُّقوطِ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: خَوَتِ الدّارُ تَخْوي، أَيْ: باد أَهْلُها وهي قائمةٌ بلا عامِرٍ[6]، وقَولهُم: خَوى النَّجْمُ؛ إذا سَقَطَ ولَم يَكُن عِنْدَ سُقوطِه مَطَرٌ[7]، والتَّخْوِيَةُ: تَرْكُ ما بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ خاليًا[8]، وقولُ اللّه تَعالى: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خاليَةٌ أَو ساقِطَةٌ عَلى سُقوفِها[9]، والمُرادُ: هَلاكُها.

5) ﴿عُرُوشِهَا﴾: (عرش) تدلُّ تصريفاتُها على ارْتِفاعٍ في شيءٍ، ومنهُ عَرْشُ البَيْتِ وعَريشُه؛ وهو سقفُهُ[10]؛ سُمّيَ بذَلِكَ لارْتِفاعِه، ومِنْهُ أَيْضًا: عَرْشُ البِئْرِ؛ وهو بناءٌ يُبْنى مِن خشَبٍ عَلى رَأْسِ البِئْرِ يَكونُ ظِلالًا[11]، وقولُ اللّه ﷻ: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أَيْ: سُقوفِها، وقَد سَقَطَ بَعْضُها عَلى بَعْضٍ، وأصلُ ذَلِكَ: أَنْ تَسْقُطَ السُّقوفُ، ثُمَّ تَسْقُطَ الحيطانُ عليْها[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلب).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (قلب).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (قلب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كف).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كف).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (خوي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوي).
(8) الراغب، المفردات: (خوي).
(9) الجوهري، الصحاح: (خوي).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرش).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عرش).
(12) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (عرش).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيانُ نَدَمِ الرَّجُلِ الكافِرِ عَلى شِرْكِهِ، ولاتَ حينَ مَندمٍ

وأَحاطَ الهَلاكُ والجَوائِحُ بصنوفِ ثمارِ جنَّتِه، فأَصْبَحَ هذا الكافِرُ يُقَلِّبُ كَفَّيْه ظَهْرًا لبَطْنٍ تَلَهُّفا وأسَفًا على ذَهابِ نَفَقَتِه التي أَنْفَقَ في جَنَّتِه، وهيَ خاليَةٌ مِن نَباتِها وبُيوتِها، ويتَمَنّى هذا الكافِرُ بعدَما أُصيبَ بجَنَّتِه أنَّه لَم يَكُنْ أَشْرَكَ بِرَبِّه أحدًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَأُحِيطَ﴾:

ما حَلَّ بالرَّجُلِ الكافِرِ عِقابٌ عادلٌ لَهُ، عَلى كُفْرِه وشِرْكِهِ

الواوُ في قَوْلِه: ﴿وَأُحِيطَ﴾ عاطِفةٌ، وهَذا العَطْفُ إنَّما هو عَلى مقدَّرٍ، والمَعْنى: وقَعَ بَعْضُ ما توقَّعَهُ الرَّجلُ المُؤْمِنُ، وأُهْلِكَت أموالُ الرَّجُلِ الكافِرِ، وحُذِفَ هذا مِنَ الكَلامِ لدِلالَةِ السِّباقِ والسِّياقِ عليْه[2]، وجاءَ عطفُ هذِه الآيَةِ - ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ - بالواوِ دونَ فاءِ التَّفْريعِ عَلى ما توقَّعهُ صاحِبُه المُؤْمِنُ؛ لأنَّه لَم يَتَعَلَّقِ الغَرَضُ في هَذا المَقامِ بالإشارَةِ إلى ذَلِكَ الرَّجُلِ المُؤْمِنِ، وإنَّما الأَهَمُّ الإيماءُ إلى أنَّ ذلكَ أَمرٌ حلَّ بالرَّجُلِ الكافِرِ عقابًا لَهُ عَلى كُفْرِه وشِرْكِه؛ ليَعْلَمَ السّامِعونَ أنَّ ذلكَ هو جزاءُ أمثالِهِ، ولَيْسَ مَخْصوصًا بتَوَقُّعِ رجُلٍ مُؤْمِنٍ ورَجائِه[3].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالكِنايَةِ في الآيَة:

بيانٌ لعُمومِ العَذابِ المُحيطِ بالجَنَّةِ وثَمَرِها

قولُه سُبحانَهُ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ هو كِنايةٌ عَن عُمومِ العَذابِ والفَسادِ، وإهْلاكِ الثَّمَرِ بالكُلِّيَّة، وأصلُ هذا التَّعبيرِ مِنْ إحاطة العدوِّ؛ وهو اسْتِدارَتُه بالشَّيْءِ مِن جَميعِ جَوانِبِه، وذَلِكَ لأنَّ العَدوَّ إذا أَحاط بشَيْءٍ فقَد مَلَكَه واسْتَوْلى عليْه، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في كُلِّ هلاكٍ[4]

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 27.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 223.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 326.
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/ 519، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 465.

وذهَبَ بَعْضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ هو مِن بابِ الاسْتِعارَةِ التَّمْثيليَّةِ؛ ووجْهُ ذلكَ: أنَّ فيه تَشْبيهًا لإهلاكِ الجَنَّتَيْنِ بما فيهما بإهْلاكِ قَوْمٍ أحاطَ بهم عَدوٌّ، وأَوْقَعَ فيهم القَتْلَ فلَم يَنْجُ مِنْهُم أَحَدٌ[1] إلّا أنَّ حَملَ الآيَةِ عَلى الكِنايَةِ أَظْهَرُ[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ ﴿وَأُحِيطَ﴾، مَبْنيًّا للمَفْعولِ:

إهْلاكُ جَنَّةِ الكافِرِ، أمرٌ يسيرٌ عَلى الله تَعالى

بُنِيَ الفِعْلُ ﴿وَأُحِيطَ﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ للمَفْعولِ؛ لنكاتٍ[3]:

إحْداها: كَوْنُ الفِكْرِ حاصِلًا بإحاطَةِ الهَلاكِ بقَطْعِ النَّظَرِ عَن فاعِلٍ مَخْصوصٍ.

ثانيها: الإيماءُ إلى سُهولَةِ هَذِهِ الإحاطَةِ، وأنَّه حاصلٌ بقَوْلِ اللهِ تَعالى: كُنْ؛ فكانَ.

ثالثُها: الإشْعارُ بأَنَّ فاعِلَهُ مُتَيَقَّنٌ؛ وهو العَذابُ الذي أَرْسَلَهُ اللهُ سُبْحانَهُ، والمَعْنى: أحاطَ العَذابُ بجَنَّتِهِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالقَيْدِ ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾:

بيانُ أنّ هَلاكَ الثَّمَرِ أَشَدُّ في الفاجِعَةِ، وأَعْظَمُ في المُصيبَةِ

في تَقْييدِ الإحاطَةِ بالثَّمرِ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ دونَ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: وأُحيطَ بزَرْعِه أو نَخْلِه أو جَنَّتِه؛ لأنَّ الإحاطَةَ قَد تَكونُ بالشَّيْءِ، ثُمَّ يُثْمِرُ بَعْدَ ذَلِكَ، لَكِنَّ الإحاطَةَ في الآيَةِ جاءَتْ عَلى الثَّمَرِ ذاتِهِ؛ وهوَ قَريبُ الجَنْيِ سهلُ التَّناوُلِ، وذَلِكَ ممّا يَجْعَلُ الفاجِعَةَ أَشَدَّ، والمُصيبَةَ أَعْظَمَ؛ لأنَّ الثَّمَرَ هو الغايَةُ للزَّرْعِ والشَّجَرِ[4].

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 102.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 268.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 64، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 521.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8919.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾:

صيَغ الجموع المراد بها التكثير والشمول

قرأ عاصم وأبو جعفر ورَوْح بفتح الثاء والميم ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾، وقرأ أبو عمرو بضمّ الثاء، وإسكان الميم: ﴿بِثُمْرِهِۦ﴾، وقرأ الباقون بضمهما جميعا: ﴿بِثُمُرِهِۦ﴾[1]، فمن قرأ بفتح الثاء والميم جعله جمع (ثَمَرة)، كـ: (بقرة وبقر)، والثَّمَر ما يُجتنى من ذي الثمر، وحجة من قرأ بضمّ الثاء والميم أنّه جعل (ثُمُر) جَمع (ثِمار)، و(ثِمار) جمع (ثَمَر)، و(ثَمَر) جمع (ثَمَرة)، فهو جمعُ جمعِ الجمعِ، ويراد به التكثير.

ويجوز أن يكون (ثُمُر) المضموم جمع (ثَمَرة)، كـ: (بدنة وبُدُن)، و(خشبة وخُشُب)، فيكون جمعَ اسمٍ مُفردٍ، ويجوز أن يكون (ثُمُر) المضموم اسمًا مفردًا لما يُجتنى كـ: (عُنُق) وهذا نادر، قليل مثله في الكلام.

وأمّا قراءة إسكان الميم فللتخفيف، وأصلها الضمّ، فهو على أحد الثلاثة الأوجه المذكورة قبل هذا، وقال بعض أهل اللغة: (الثُّمر) بالإسكان: المال، و(الثَّمَر) بالفتح: المأكول، وقال بعض المفسرين: (الثُّمُر) بالضمّ: النَّخل والشجر بما فيها.

ولم يقصد البيان القرآني في سورة الكهف أن الثَّمَرة هَلَكت دون المُثْمِر، بل قصد هلاكَ المثمِر، وفي هلاكه هلاك ثمره، وذلك أبلغ في العقوبة، ويدلّ على أن الذي هلك المثمر قوله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: 42]، والنَّفقة أكثرُ ما تكون في المُثْمِر حتى يبلغ إلى وجوب كون الثمرة فيه، وإخباره عنها أنّها بقيَتْ خاوية يدلّ على هلاك المثمِر، وحكي عن أبي عمرو أنه قال: (الثَّمَر، والثُّمُر): أنواع المال، ومن قرأ بالفتح إنما أخبر عن الثَّمَرةِ هلكت[2].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 310.
(2) مكي بن أبي طالب، الكشف: 2/ 59.

فبلاغة القراءات هنا هو شمولها؛ فقد يقول قائل: فلَرُبّما بَقيَ شيء من الثَّمَرِ لم يهلك! فأتت القراءات القرآنية متكاملةً لتُفيد أنه أحاط الدّمار والهلاك بالثّمر من كلّ جانب، ولم يَبْقَ فيها ثمر صالح مطلقًا، ولا ما يستوعبُ الثَّمَر، فجاءت جملةُ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ - بما فيها من قراءات - شاملةً لمكان الإحاطة وأنواعها، مستغرقةً لكلّ جزئيّة.

مَعْنَى الفاءِ ودِلالَتُها في ﴿فَأَصْبَحَ﴾:

الفاءُ في ﴿فَأَصْبَحَ﴾ من قَوْلِ الله ﷻ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ دالَّةٌ عَلى السّببيّةِ والعطفِ المُفيدِ للتّرتيبِ مع التّعقيبِ، فأفاد ذلك أنّ عذاب الاستئصالِ وقع سريعًا بآفة سماويّة مُباغتة، وذلك أدخلُ في التّحسُّرِ؛ إذِ التّحسُّرُ يعظُمُ إذا وقع الأمرُ بغتةً[1].

إيضاحُ أنّ التَّحَسُّرَ يَعْظُمُ، إذا وقَعَ الأَمرُ فجْأَةً

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالكِنايَةِ في سياق الآيةِ:

قولُ الله ﷻ: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ كِنايَةٌ عَن النَّدمِ والحَسْرَةِ؛ وذلكَ لأنَّ مَن عَظُمَت حَسْرَتُه واشْتَدَّ أَسَفُه يَضْرِبُ بإحْدى يَدَيْه عَلى الأُخْرى، ففي التَّعْبيرِ بالكِنايَةِ تَصْويرٌ بَديعٌ لما اعْتَرى الرَّجلَ الكافرَ من غَمٍّ وهَمٍّ شَديدَيْنِ ونَدامَةٍ عَظيمَةٍ وحَسْرَةٍ شَديدةٍ[2]، وجوَّز بعضُ أَهْلِ العِلْمِ أَن يَكونَ لَفْظُ الكَفِّ في الآيَةِ مُرادًا به المِلكُ، عَلى طريقِ المَجازِ، والمَعْنى: أَصْبَحَ يُقَلِّبُ مِلْكَهُ، فلا يَرى فيه عِوَضًا عَمّا أَنْفَقَهُ فيها[3]، والأوَّلُ أظهَرُ وأبْيَنُ وأرجحُ؛ لأنَّ المِلْكَ وإن كانَ يُعبَّرُ عَنْهُ باليَدِ مجازًا، إلّا أنَّه قَلَّ اسْتِعْمالُ لَفْظِ الكَفِّ فيه، ثُمَّ إنَّ تَثْنِيَةَ الكَفِّ تُبْعِدُ إرادَةَ هَذا المَعْنى.

بديعُ التّصويرِ القُرآنيّ، لغمِّ الرّجُلِ الكافِرِ وهمِّه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 269، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4534.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 465، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 181، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 521.

(3) الماورديّ، النكت والعيون: 3/ 308.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿فَأَصْبَحَ﴾:

تَحَقُّقُ الإهْلاكِ، وبَيانُ إتْيانِه على حين غرّةٍ

في التَّعْبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿فَأَصْبَحَ﴾ من قَوْلِ الله سُبْحانَهُ: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾، دلالَةٌ عَلى تَحَقُّق هَذا الإصْباحِ وما حَصَلَ فيه من تَقْليبِ الكَفَّيْنِ نَدَمًا وتَحَسُّرًا، وفي التَّعْبيرِ بالإصْباحِ إيماءٌ إلى أنَّ هَذا الإهْلاكَ جَرى ليلًا؛ لأنَّهُ وقْتُ غَفْلَةٍ، وهَذا هو الظّاهِرُ من لَفْظِ الإصْباحِ، ويُحْتَمَلُ أن يَكونَ الفِعْلُ ﴿فَأَصْبَحَ﴾ بمَعْنى: صارَ، فلا يَدُلُّ عَلى تَقْييدِ الخَبَرِ بوَقْتِ الصَّباحِ[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُقَلِّبُ﴾:

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُقَلِّبُ﴾ من قَوْلِ الله ﷻ: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ للدّلالَةِ عَلى اسْتِمرارِ هَذا التَّقْليبِ، وهَذا مُفيدٌ اسْتِمرارَ حَسْرَتِه ودوامَ نَدَمِه.

الغرضُ منَ التّعبيرِ بالضّميرِ المُستترِ مع الفعل:

الحسرةُ والنّدمُ غَطّيا صاحبَ الجنّةِ وغيّباهُ، كما يُغيّبُ الظّاهرُ بالإضمارِ

في قولِه تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾، لطيفةٌ، حيث نَجدُ فيه استتارَ الضّميرِ في الفعلَيْن ﴿فَأَصْبَحَ﴾ و﴿يُقَلِّبُ﴾، وذلك دالٌّ على انْسِحاقِ صاحبِه بالحسرةِ والنّدمِ، حتّى غابَ عنِ الظّهورِ، وغطّتْهُ الحسرةُ، وغيّبَهُ النَّدمُ، إضافةً إلى أنَّه محورُ القصّةِ وعِبرتُها، فهو معلومٌ في النّفس مُتعيّنٌ، فناسبَ ذلك استتارُه.

سِرُّ المُثَنّى المُضافِ لضَميرِ الغَيْبَةِ ﴿كَفَّيْهِ﴾:

تَقْليبُ الكَفَّيْنِ كِنايَةٌ عَنِ النَّدَمِ والتَّحَسُّرِ

عُبِّرَ بالمَفْعولِ به ﴿كَفَّيْهِ﴾ من قَوْلِ الله سُبْحانَهُ: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ بصيغةِ المثنّى؛ لأنَّ فِعْلَ النّادِمِ لا يَكونُ عادَةً إلّا بمَجْموعِ كَفَّيْه، لا بأَحَدِهما، وأُضيفَ ذَلِكَ اللَّفْظُ إلى ضَميرِ الغَيْبَةِ الرّاجِعِ إلى الرَّجُلِ الكافِرِ؛ لتَحْقيقِ هَذا المَعْنى وتأكيدِه، وأنَّه يُقَلِّبُ كَفَّيْ نَفْسِه تَنَدُّمًا وتَحَسُّرًا.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 410، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 181.

مَعْنى الحَرْفِ ﴿عَلَىٰ﴾ ودِلالَتُهُ:

﴿عَلَىٰ﴾ في قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ دالٌّ عَلى الاسْتِعْلاءِ، وفي ذَلك إيماءٌ إلى شِدَّةِ حَسْرَتِه وعِظَمِ نَدامَتِه حَتّى علَتْ وعمَّتْ جَميعَ ما أَنْفَقَهُ مِن أَجْلِ جَنَّتِه.

بيانُ عِظَمِ الحَسْرَةِ، وشِدَّةِ النَّدامَةِ في السّياقِ

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿مَآ﴾:

في التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿مَآ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ دلالَةٌ عَلى العُمومِ؛ إذِ الاسْمُ المَوْصولُ مِنْ أَلْفاظِ العُمومِ، والمَعْنى: أنَّه نَدِمَ عَلى جَميعِ ما أَنْفَقَهُ عَلى هذه الجَنَّةِ؛ إذْ لَم يَسْتَفِدْ مِن ذَلِكَ بشَيْءٍ؛ لهَلاكِه وفَسادِه قَبْلَ التَّمَكُّنِ مِنْ ذَلِكَ.

وصفُ نَدَمِه عَلى جَميعِ ما أَنْفَقَهُ عَلى جَنَّتِهِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿أَنفَقَ﴾:

عُبِّرَ عَنِ الإنفاقِ ماضيًا ﴿أَنفَقَ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾؛ للدِّلالَةِ عَلى تَحَقُّقِ هَذا الإنفاقِ، ويترتَّبُ عَلى هَذا التَّحَقُّقِ: تحَقُّقُ نَدامَتِه وحَسْرَتِه وشِدَّتُهُما.

إبرازُ تَحَقُّقِ الحَسْرَةِ والنَّدامَةِ وشِدَّتِهِما

سِرُّ التَّعبيرِ بحَرْفِ الجَرِّ (في) دونَ (عَلى):

عُبِّر بحَرْفِ الجرِّ ﴿فِيهَا﴾ الدّالِّ عَلى الظَّرفيَّة في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿أَنفَقَ فِيهَا﴾ دون حَرْفِ الاسْتِعْلاءِ (عَلى)، فلَم يَرِدِ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: (أَنْفَقَ عليْها)؛ للإيماءِ إلى شِدَّةِ هَذا الإنْفاقِ، ولازِمُ ذَلِكَ شِدَّةُ انْغماسِ الرَّجُلِ في التَّعَلُّقِ بجَنَّتِه.

شِدَّةُ انْغِماسِ الرَّجُلِ في التَّعَلُّقِ بجَنَّتِهِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بالجُملَةِ الحاليَّةِ اسميّةً:

في التَّعْبيرِ بجُملَةِ الحالِ ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ تنبيهٌ عَلى سَبَبِ حَسْرَةِ الرَّجُلِ الكافِرِ ونَدامَتِه؛ حيثُ إنَّه بالغَ في الإنْفاقِ عَلى جَنَّتِه، واشْتَدَّ تَعَلُّقُه بها؛ وكانَ مآلَها أَن خَرِبَت وهَلَكَت، فلَم يَنْتَفِعْ بالذي أَنْفَقَهُ فيها، وانْقَطَع حَبْلُ تَعَلُّقِه بها، وفي التَّعْبيرِ بجُملَةِ الحالِ اسْميَّةً دِلالةٌ عَلى هَلاكِ هذه الجَنَّةِ هَلاكًا مُسْتَمِرًّا، مُقابَلَةً للرَّجُلِ

في إهْلاكِ الجَنَّةِ مُقابَلَةُ الرَّجُلِ الكافِرِ، بنَقيضِ دَعْواهُ

الكافِرِ بنَقيضِ دَعْواهُ دَوامَ نَضارَتِها وعِمارَتِها في قَوْلِه قَبْلُ: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالخَبَرِ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ اسْمَ فاعِلٍ:

دَوامُ سُقوطِ سُقوفِها على قيعانِها

في التَّعْبيرِ بالخَبَرِ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ اسْمَ فاعِلٍ مِن قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، إيماءٌ إلى دوامِ كَوْنِها خالِيَةً، وأَنَّ سُقوطَ سُقوفِها، أَمرٌ ثابِتٌ ومُسْتَمِرٌّ لَها. "والمقصودُ أنّ الجنّةَ بجميعِ ما اشتملت عليه، صارت حُطامًا وهشيمًا تذروه الرّياحُ"[1].

سِرُّ التَّقْييدِ بـ ﴿عُرُوشِهَا﴾ دونَ غَيْرِها:

الجَمعُ بَيْنَ هَلاكِ الأَصْلِ وهَلاكِ الثَّمَرِ، مِنْ أَعْظَمِ الجَوائِحِ

في التَّقْييدِ بالعُروشِ في قَوْلِ اللّه تَعالى حكاية: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ جَمعٌ عَلى الرَّجُلِ الكافِرِ بَيْنَ هلاكِ الثَّمَرِ وهَلاكِ الأَصْلِ، وهو مِنْ أَعْظَمِ الجَوائِحِ، مُقابَلَةً لَهُ عَلى شِدَّةِ بَغْيِه وعَظيمِ كُفْرِه وكِبْرِه[2]، وتَخْصيصُ العُروشِ بالذِّكْرِ دونَ النَّخْلِ والزَّرْعِ؛ إمّا لكَوْنِها العُمدةَ وهُما مِنْ مُتَمِّماتِها، وإمّا لكَوْنِ ذِكْرِ هَلاكِها مُغْنيًا عَن ذِكْرِ هَلاكِ الباقي؛ وذَلِكَ لأنَّها إذا هَلَكَت وهيَ مُشَيَّدَةٌ بعُروشِها؛ فهَلاكُ ما سِواها حاصِلٌ بطَريقِ الأَوْلَويَّةِ والأَحْرَويَّة، وإمّا لكَوْنِ الإنْفاقِ في عِمارَتِها أَكْثَرَ[3].

نُكتة الإضافَةِ في لفظ ﴿عُرُوشِهَا﴾:

رُؤْيَةُ هَلاكِ الجَنَّةِ على وجْهِ التَّراكُمِ، أَبْلَغُ في الحَسْرَةِ

أُضيفَتِ العُروشُ إلى الضَّميرِ العائِدِ على الجَنَّةِ في قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ حكاية: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ للدِّلالَةِ عَلى هَلاكِ الجَنَّةِ وتَداعي بَعْضِها عَلى بَعْضٍ، بحَيْثُ رَأى ذَلِكَ مُتَراكِمًا عَلى وجْهِ الفَسادِ، وهَذا أَبْلَغُ في حَسْرَتِه ونَدامَتِه، بخِلافِ ما لَو أُهْلِكَت جَنَّتُهُ بريحٍ نَقَلَتْ ذَلِكَ إلى مَحَلٍّ آخَرَ لا يَتَبيَّنُهُ ولا يَراهُ.

(1) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 522

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 410.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 224.

دِلالَةُ الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ﴾:

بَـيـانُ أُمـنـيَـتِـه بَـعْـدَ حَسْرَتِهِ، توصيفٌ لحاله المُزرِيةِ

الواوُ في ﴿وَيَقُولُ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ عاطفةٌ الفعلَ بَعْدَها (يَقولُ) عَلى الفِعْلِ قبلُ؛ وهو ﴿يُقَلِّبُ﴾، لدِقَّةِ توصيفِ حالِه التي وصَلَ إليها من النَّدَمِ والحسرةِ، حيثُ كان ذلك منه فعلًا وقولًا، ويجوزُ – على ضعف – أَنْ تَكونَ الواوُ حاليَّةً، والجُملَةُ بَعْدَها حالٌ ثانيةٌ، أي: وهو يقولُ: يا لَيْتَني لَم أُشْرِكْ برَبّي أحدًا[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيَقُولُ﴾:

بَيانُ شِـدَّةِ نَـدَمِ الـرَّجُـلِ الـكـافِـرِ عَلى ما سَبَقَ مِنْهُ

في التَّعْبيرِ عَن مَقالَتِه بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيَقُولُ﴾ من قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ دلالَةٌ عَلى تَكَرُّرِ ذَلِكَ القَوْلِ مِنْهُ؛ إيماءً إلى شِدَّةِ تَنَدُّمِه بَعْدَ حُلولِ العَذابِ عَلى ما فرَطَ مِنْهُ[2].

دِلالَةُ التّندّمِ والتّحسّرِ في السّياق:

تَـذَكُّـرُ الـكـافِـرِ المَغرورِ، مَوْعِظَةَ المُؤْمِنِ المبرورِ

في حكايةِ قَوْلِ الرَّجُلِ الكافِرِ: ﴿يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، بيانٌ لشِدَّةِ تَنَدُّمِه وتَحَسُّرِه؛ فكأَنَّه تَذَكَّرَ مَوْعِظَةَ أَخيه وعَلِمَ أنَّه إنَّما أُتيَ مِن جِهَةِ شِرْكِه باللّه تَعالى، فتَمَنّى لَو لَم يَكُن مُشْرِكًا، فلَم يُصِبْهُ ما أَصابَهُ، وجَوَّزَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ أَن تَكونَ هذِه المَقالَةُ مِنْهُ عَلى جِهَةِ التَّوبةِ مِنَ الشِّرْكِ والنَّدَمِ عَلى ما صَدَرَ مِنْهُ[3].

مَعْنَى (يا) ودِلالَتُها في قَوْلِهِ: ﴿يَـٰلَيْتَنِى﴾:

بيانُ نَدَمِ الرَّجُلِ الـكـافِـرِ، عَـلى إشْراكِه الغابِرِ

حرفُ النِّداءِ (يا) في قَوْلِ اللّه ﷻ حكايةً: ﴿يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ مُسْتَعْمَلٌ في مَعْنى التَّلَهُّفِ، و(لَيْتَني): لَفْظُ تَمَنٍّ، والمُرادُ به التَّنَدُّمُ، وفي هَذا التَّركيبِ ﴿يَـٰلَيْتَنِى﴾ تَنْزيلٌ للَفْظةِ (لَيْتَ) مَنْزِلَةَ العاقِلِ، فكأَنَّهُ يُخاطِبُ لفظةَ (لَيْتَ)، ويقولُ: احْضُري؛ فهَذا أَوانُكِ،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 224.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 327.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 224.

فهو نظيرُ قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56]، فهو نَدَمٌ عَلى الإشْراكِ فيما مَضى، وهو مُشْعِرٌ بأَنَّه آمنَ باللهِ تَعالى وحْدَهُ حينَئِذٍ[1].

سِرُّ اسْتِعْمالِ حَرْفِ النَّفْيِ ﴿لَمْ﴾ دونَ (ما):

دِقَّةُ اخْتيارِ أَحْرُفِ المَعاني المُلائِمَةِ لسياقاتِها

أوثرَ التَّعْبيرُ بحَرْفِ النَّفْيِ ﴿لَمْ﴾ في قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ حكاية: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾؛ لكَوْنِ هَذا الحَرْفِ يَقْلِبُ دِلالَةَ الفِعْلِ المُضارِعِ مِن الحاضرِ إلى المُضيِّ، وهوَ أَنْسَبُ لمَعْنى التَّنَدُّمِ والتَّحَسُّر عَلى ما مَضى وفَرَطَ مِنْهُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿لَمْ أُشْرِكْ﴾:

تَمنّي استعادةِ الزّمنِ الماضي، ليكونَ حاضرًا غيرُ مُمكنٍ

في قولِه تعالى حكاية: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، ورَدَ التّعبيرُ بالمضارعِ صورةً؛ لتصويرِ حالِه التي هو عليها؛ مِن تَمَنّي استعادةِ الماضي المُنصرِمِ وجعلِه حاضرًا مُمكنًا؛ لما في الحاضرِ والمُستقبَلِ من إمكانِ التَّدارُكِ وعدمِ الوقوعِ في الكفرِ والشِّركِ باللهِ، ولكنْ هيهاتَ، ويَفوتُ هذا لو جاء النّفيُ بـ: (ما) وقيل: (ليتني ما أشركت).

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿بِرَبِّىٓ﴾:

تَفَرُّدُ اللهِ ﷻ بالرُّبوبيَّةِ يَسْتَلْزِمُ تَفَرُّدَهُ بالأُلوهيَّةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ ﴿بِرَبِّىٓ﴾ عَلى المَفْعولِ به ﴿أَحَدًا﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾؛ للعِنايَةِ بعُنْوانِ الرُّبوبيَّة؛ لكَوْنِها دليلًا على صِحَّةِ عدَمِ الإشْراكِ باللهِ تَعالى؛ إذْ كَوْنُه سُبْحانَهُ مُتَفَرِّدًا بالرُّبوبيَّة يَسْتَلْزِمُ إفْرادَهُ بالأُلوهيَّة والعُبوديَّة، وفي الاهْتِمامِ بعُنْوانِ الرُّبوبيَّةِ إيماءٌ إلى أنَّ مُجانَبَةَ الشِّرْكِ هو مُقْتَضى إحْسانِ اللهِ تَعالى إلى العِبادِ، وأنَّ مُقارَفَةَ الشِّرْكِ مُخالِفٌ لهَذا الإحْسانِ الإلَهيِّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 327.

سرُّ إيثارِ حرفِ الجرّ الباءِ في ﴿بِرَبِّي﴾ على (مع):

تَمنّي البراءةِ التّامَّةِ منَ الشّرك لو عاد به الزّمنُ

الباءُ للإلصاق، وإيثارُها على (مع)، هو الأبرُّ بسياقِ تَمَنّي المستحيلِ؛ لأنّه مُرتبطٌ باستعادة الماضي، والمعنى: أنّه يَتمنَّى لو عادَ به الزّمنُ؛ لئلّا يلصقَ اللّه بغيره في العبوديّة، فالتّعبيرُ بالباء براءةٌ تامّةٌ منَ الشّرك.

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ المفعولِ به ﴿أَحَدًا﴾:

تعميمُ نفي الشّريك، غايةٌ ما يَتمنّاه مَن تورَّطَ في الشّرك

نُكِّرَ المَفعولُ به ﴿أَحَدًا﴾ مِنْ قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾؛ لإفادَةِ العُموم، وذلك لوُقوع النَّكرةِ في سياقِ النَّفْي، وهَذا مِنَ الصّيَغِ المُفيدَةِ العُمومَ والاسْتِغْراقَ، والمَعْنى: يا لَيْتَني لم أُشْرِكْ برَبّي أيَّ أحدٍ كانَ، ولَمْ أُشْرِكْ به بأيِّ نَوْعٍ مِن أَنْواعِ الشِّرْكِ.

نُكْتَةُ إيثارِ اسْتِعْمالِ ﴿أَحَدًا﴾ عَلى (واحِدًا):

الأحدُ أبلغُ في النّفي مِنَ الواحِدِ

آثَرَ النَّظْمُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ بـ ﴿أَحَدًا﴾ دونَ (واحِدًا) مِن قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾؛ لكونِ الأحَدِ أبلغَ في النَّفْي مِنَ الواحِدِ، فكانَ لَفْظُ الأحَدِ أَنْسَبَ في سياقِ عموم نَفْي الإشْراكِ باللّه تَعالى.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»